

الباب الرابع

الإصلاح في مرآة التاريخ الجزائري

- واقع الجزائر وثورة الإصلاح.
- عوامل ظهور حركة الإصلاح الديني.
- عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الإصلاح.
- دعوات الإصلاح تلتقي؛
- جمال الدين الأفقاني - محمد عبده.
- رشيد رضا - ابن باديس.

الإصلاح في مرآة التاريخ الجزائري

واقع الجزائر وثورة الإصلاح

نشأ عبد الحميد بن باديس نشأة دينية نيرة، إذ درس اللغة ومبادئ الإسلام على أيدي أناس يفهمون الشريعة فهما صافيا، ثم التحق بجامعة الزيتونة بتونس فأكمل دراسته الدينية، ورحل إلى بلاد الشرق العربي فزار مصر وسورية ولبنان ومكة والمدينة، واتصل عن كثب بمحاور الإصلاح الديني الذي كانت تمثله مدرسة الأستاذ الإمام محمد عبده في مصر وكان حنينه دافقا إلى هذه المدرسة، منذ سمع في نعومة أظفاره بمحمد عبده، ولمس من أساتذته بجامعة الزيتونة إجلالا لذكره وتمسكا بمبادئه ومبادئه، كما كانت رحلته إلى الجزائر في خاتمة حياته مجالا طيبا للحديث عن آرائه القوية في نهضة الإسلام وإصلاح المسلمين.

وقد رزق عبد الحميد هذا القلق الثائر الذي لا يستقر حتى يستقيم الأمر لأهله، وتنجاب حنادس الشكوك، فأخذ على عاتقه القيام بالدعوة إلى الإسلام في وطن مستضعف يتكالب عليه الباطل بخيله ورجله، ورأى أن الدعوة إلى الإسلام لا تفترق عن الدعوة إلى العربية، فهما قطبا الدائرة في مناوأة الاستعمار.

وكان ابن باديس خطيبا فصيحاً، إذا ارتقى المنبر يوم الجمعة نفخ من روحه العاتية في سامعيه فأنعش الذابل وأخضر اليابس وأفسح الطريق للأمل العريض، وأما قدرته العلمية فقد كانت تمهد له انتصار الفكرة الصادقة إذا اصطدمت بالفكرة المغرضة، فيعبي شتى جهوده كي يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، لذلك كان تلاميذه يلهبون عواطفهم بأحاديثه المنبرية ومجالسه الدراسية، كما يصقلون تفكيرهم بآثاره القلمية، وقد تعدد مجال الإصلاح أمامه، فسلك طرقا مختلفة تلتقى جميعا في الدعوة إلى الله عن بصيرة، وقد كان من قوة الإرادة بحيث صمد للاعتقال والاضطهاد دون أن يستكين، وزاد في صلابته القوية أنه كان يقدر هذا العذاب قبل وقوعه، فهو يعلم أنه

مجاهد يجالذ الأعداء في حومة حامية، لا بد وأن تنوشه السهام في كل وقت، فمهما تعاورته الحراب فهو بطل يؤدي دوره في المعركة دون أن ينكص على عقبيه، أو يترد إلى الوراء بضع خطوات، ولعل من أهم الميادين التي انفسحت لجهاده: جمعية العلماء - إنشاء المدارس الإسلامية . . . ثم الصحافة في خدمة قضية الكفاح ضد المستعمر (١).

عوامل ظهور حركة الإصلاح الديني

يعود الفضل في ظهور حركة الإصلاح الديني وازدهارها في الجزائر إلى مجموعة عوامل ذكرها الشيخ الإبراهيمي، وهي:

أولاً: دعوة الشيخ محمد عبده إلى الإصلاح، وعلى الرغم من معاداة الكثيرين لهذه الدعوة داخل المجتمع الجزائري إلا أنها أثارت في نفوس الناس التطلع إلى ما هو أفضل، ويضيف الشيخ الإبراهيمي: إن وصول جريدة المنار وإطلاع البعض عليها ساعداً في إيصال فكر الشيخ محمد عبده، كما أن علماء السلف أمثال ابن تيمية، وابن قيم الجوزية، والشوكاني، كان لهم أثرهم في تهيئة البلاد لقبول الدعوة الإصلاحية، ولقد أكد رجال الجمعية في أكثر من مناسبة تأثرهم بدعوة الشيخ محمد عبده حيث يقول أحدهم: «لا نزاع في أن أول صيحة ارتفعت في العالم الإسلامي بلزوم الإصلاح الديني والعلمي في الجيل السابق لجيلنا هي صيحة إمام المصلحين الأستاذ الشيخ محمد عبده». ويقول الشيخ محمد خير الدين - وهو من الأعضاء المؤسسين لجمعية علماء المسلمين الجزائريين - في مذكراته: «والحركات التحررية في بعض بلدان المشرق العربي مدينة لحركة الإصلاح الفكري والديني التي قادها موقظ الشرق جمال الدين الأفغاني، ومن بعده الإمام محمد عبده، ثم تلميذه رشيد رضا، ولم تكن هذه الحركة بعيدة عن الجزائر بل كان مددها متصلاً، فجريدة «العروة الوثقى» التي كان يصدرها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده و«المنار» التي كان يصدرها رشيد رضا، ومجلة «الفتح» لمحِب الدين الخطيب من الصحف التي كانت تغذي نفوس المصلحين» (٢).

(١) جمعية العلماء الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية - ط دار القلم دمشق، دار القلم بيروت د/ مازن صلاح ود / حامد مطبقاتي.

(٢) ابن باديس - الشهاب - ج ٧ م ١١ أكتوبر ١٩٣٥ م.

ويعترف الشيخ عبد الحميد بن باديس بفضل الشيخ محمد رشيد رضا ومجلة «المنار» عليه بقوله: «نشرنا ما يلي في تفسير حجة الإسلام محمد رشيد رضا من آخر جزء أصدره من مجلة المنار اعترافا له بفضل السبق إلى نشر هداية القرآن على المسلمين بمجلة شهرية كانت قدوتنا فيما ننشر من مجالس التذكير.

ولم تقتصر الاستفادة من الشيخ رشيد رضا على موضوع تفسير القرآن، فإن ما كان يكتبه الشيخ رضا في المنار وغيرها قد أوضح الإسلام للمسلمين ولغيرهم، وبين لهم ما في الإسلام من خير وهداية».

ويضيف الشيخ ابن باديس «فهذه الحركة الدينية الإسلامية الكبرى في العالم إصلاحا وهداية وبياناً ودفاعاً كلها من آثاره»^(١).

ومن المعروف أنه كان هناك اتصال شخصي بين الإمام محمد رشيد رضا وبعض رجال الجمعية، كالبشير الإبراهيمي الذي قابله في سوريا عندما ترك الحجاز ليقوم في سوريا وكذلك أبو يعلى الزواوي^(*).

أما عبد الحميد بن باديس فقد اتصل بالشيخ رشيد رضا بالمراسلة وبطريقة غاية في السرية والكتمان؛ خوفاً من السلطات الاستعمارية التي كانت تحاول إثبات مثل هذا الاتصال إثباتاً مادياً لضرب حركة العلماء.

ثانياً: الثورة التعليمية التي أحدثها الشيخ عبد الحميد بن باديس بدروسه الحية والتربية الصحيحة التي كان يأخذ بها تلاميذه^(٢).

والحقيقة أن حركة التعليم في الجزائر والتي تعد نواة لحركة الإصلاح الديني ترتبط بدروس الشيخ عبد الحميد في مساجد قسنطينة، فقد بدأ عام ١٣٢١ هـ - ١٩١٣ م يدرس بالجامع الكبير، ولكن منعه ابن الموهوب من ذلك فتوسط له أبوه - الذي كان موظفاً رسمياً لدى الحكومة - فانتقل إلى الجامع الأخضر في بداية شهر جمادى الأولى ١٣٣٢ هـ الموافق أبريل ١٩١٤ م.

(١) ابن باديس: حجة الإسلام السيد محمد رشيد رضا - الشهاب ج ٩ م ١١ ديسمبر ١٩٣٥ م.
(*) أبو يعلى الزواوي (١٢٧٩ - ١٣٧١ هـ) (١٨٦٢ - ١٩٥٢ م) ولد ودرس في زواو . . على يد شيوخها حفظ القرآن وهو ابن اثني عشر عاماً، تولى عدداً من المناصب الرسمية منها الخطابة والتدريس في مسجد سيدي رمضان بالجزائر العاصمة، كان من رجال الإصلاح وقد تولى الرئاسة المؤقتة للاجتماع التأسيسي ورئاسة لجنة العمل الدائمة بالعاصمة، كان له نشاط كبير في الصحافة الإصلاحية . . . عن مقال أبي القاسم سعد الله - المجلة التاريخية المغربية السنة التاسعة ديسمبر ١٩٨٢ م.
(٢) البشير الإبراهيمي «سجل المؤتمر» ص ٤٧ .

ثم انقطع عن التدريس فترة ليحج بيت الله الحرام ويزور مصر وغيرها من بلاد المشرق ليتعرف على علمائها، ويتلقى عليهم العلم، وكانت عودته إلى الجزائر قبيل الحرب الأولى، ثم عودة الإبراهيمي^(١) والعقبي إيدانا بالانطلاقة الكبرى لحركة الإصلاح، وفي ذلك يقول مالك بن نبي: «ولقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات ابن باديس، فكانت تلك ساعة اليقظة»^(٢).

ويقول الشيخ على المغربي^(٣): «وفي هذه الفترة من الزمن . . . يؤسس هذا الأستاذ مدرسته العظيمة بقسنطينة التي هي أول مدرسة عربية تعمل لما يرقى المسلم الجزائري ويرفع من شأنه، ويحمل حملته الشعواء على الجهل والخراب».

كانت دروس الشيخ عبد الحميد بن باديس تستغرق معظم النهار، فمن بعد صلاة الفجر إلى ما بعد صلاة العشاء لا ينقطع عن التدريس إلا لراحة قصيرة أو عمل في مكتبه بجريدة أو مجلة الشهاب، يعلم الصغار الذين لم يجدوا مكانا في المدارس الفرنسية صباحا، ويعلم طلبة المدارس الفرنسية عصرا بعد خروجهم من المدرسة ليربطهم بعقيدتهم وتراثهم الحضاري . . . ولم يكن ابن باديس يهدف إلى تكوين معلمين محترفين ليمارسوا مهنة التعليم بل لتكوين دعاة على أساس العلم والعمل^(٤).

ولم يكتف الشيخ ابن باديس بدروسه في مسجد سيدي قموش والجامع الأخضر، بل كان يقوم بجولات في أنحاء القطر الجزائري خلال العطلة الصيفية وكذلك خلال عطلة نهاية الأسبوع، وكانت هذه الجولات تهدف إلى التعرف على وطنه الجزائر لأن المشاهدة خير من السماع، وقد كان يزور الزوايا ليناقشهم في العقيدة والفكر الإسلامي، ومن ذلك زيارته لزواية أحمد بن عليوة^(*)، وقد تحدث في هذه الزيارة عن الأولياء وموقف الإسلام من ذلك^(٥).

(١) ابن باديس حياته وآثاره - عمار الطالبي ج٤ ص ٣٧ .

(٢) مالك بن نبي: شروط النهضة ط٣ بيروت دار الفكر ١٩٦٩ م ص ٣٠ .

(٣) الشيخ على المغربي ولد في بلاد فرفارة ١٣٣٣ هـ - ١٩١٥ م درس في الجامع الأخضر ثم التحق بجامع الزيتونة وعاد إلى الجزائر ليشترك في أعمال جمعية العلماء معلما .

(٤) مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر جمع وتعليق د/ أحمد شرف الرفاعي ط الأولى قسنطينة دار البعث ١٩٨١ م من المقدمة ص ٢٨ - ٢٨ .

(*) أحمد بن عليوة ولد في مستغانم، هاجر إلى الشرق متنقلا بين مصر - سوريا - إيران - الهند، عاد للجزائر بعد عشر سنوات بعد الحرب العالمية الأولى، حارب الإصلاح بلا هوادة وأسس لذلك جريدة البلاغ الجزائري، اتهم أحد أتباعه بقتل ابن باديس - أنظر الحركة الوطنية - سعد الله ج٢ ص ٤١٦ .

(٥) الشهاب ج٢ ٧ ديسمبر ١٩٣٠ ص ٧٧٣ .

وفى هذه الزيارات كان يطلب من شيوخ الزوايا أن يبعثوا أبناءهم ليتلقوا العلم فى قسنطينة على يديه ، فيعود الكثير منهم محارباً للعقائد الفاسدة والخرافات داعياً إلى الله على بصيرة ، ومن أمثال هؤلاء : الفضيل الورتلانى ، وعمر دردور ، وسعيد الصالحى ، وغيرهم .

وعندما وجد المصلحون أن الطريقة لن تتراجع عن موقفها بسهولة ؛ أخذ ابن باديس يخاطب الشعب عبر الصحافة « واحذر كل «متريبط» يريد أن يقف بينك وبين ربك ، وسيطر على عقلك ، وقلبك وجسمك ومالك بقوة ، يزعم التصرف فى الكون»^(١) .

ثالثاً: عودة مجموعة من الجزائريين الذين كانوا يتلقون العلم فى الحجاز ومصر وتونس وغيرها بعد الحرب العالمية الأولى .

رابعاً: وآخر هذه العوامل التى ذكرها الإبراهيمى هو العامل الذى رسمته الحرب العالمية الأولى فى نفوس الشعب الجزائرى من رغبة فى الإصلاح وظهور حقيقة الطريقة .

ويمكننا أن نضيف عدة عوامل أخرى لانتقل عما ذكر الشيخ الإبراهيمى .

ومن ذلك ظهور حركة فكرية فى بداية القرن العشرين على أيدى بعض العلماء أمثال : عبد الحليم بن سماية ، والحفناوى ولونيسى وابن الموهوب ، وهذه وإن كانت لاترقى إلى أهمية ابن باديس لكنها - لاشك - هيات الشعب الجزائرى إلى قبول الإصلاح وتأيدته .

الإسلام فى فكر ابن باديس ،

ونحن لما نظرنا فى الإسلام وجدناه الدين الذى يحترم الإنسانية فى جميع أجناسها فيقول : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء الآية ٧٠] .

ويقرر التساوى والأخوة بين جميع تلك الأجناس ، ويبين أنهم كانوا أجناساً للتمييز لا للتفضيل ، وأن التفاضل بالأعمال الصالحة فقط ، فيقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات الآية ١٣] .

(١) ابن باديس - الشهاب - العدد ٤٩ أغسطس ١٩٢٦ م .

ويدعو تلك الأجناس كلها إلى التعاطف والتراحم . . . ويقرر التضامن الإنساني العام بأن الإحسان إلى واحد إحسان إلى الجميع والإساءة إليه إساءة إلى الجميع ، فيقول : ﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة الآية ٣٢].

ويعترف بالأديان الأخرى ويحترمها ويسلم أمر التصرف فيها لأهلها، فيقول : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون الآية ٦].

ويقرر شرائع الأمم ويهون عليها شأن الاختلاف ويدعوها إلى التسابق في الخيرات فيقول : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة الآية ٤٨].

ويأمر بالعدل العام مع العدو والصديق : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا ﴾ [المائدة الآية ٨].

ويأمر بالإحسان العام فيقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل الآية ٩٠].

ويأمر بحسن التخاطب العام فيقول : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة الآية ٨٣]^(١).

فلما عرفنا هذا وأكثر من هذا في الإسلام... وهو الدين الذي فطرنا الله عليه بفضله علمنا أنه دين الإنسانية الذي لا نجاة لها ولا سعادة إلا به ، وأن خدمتها لا تكون إلا على أصوله ، وأن إيصال النفع إليها لا يكون إلا عن طريقه ، فعاهدنا الله على أن نقف حياتنا على خدمته ونشر هدايته . وقد يظن الناس أن التمسك بالإسلام وجعله أساسا لنظام الحياة ينافيان وجود أقليات غير مسلمة في الأمة المسلمة وينافيان الوحدة بين عناصر الأمة ، وهي دعامة قوية من دعائم النهوض في هذا العصر ، ولكن الحق غير ذلك بالمرّة ، فإن الإسلام الذي وضعه الحكيم الخبير الذي يعلم ماضى الأمم وحاضرها

(١) عبد الحميد ابن باديس رائد الحركة الإسلامية بتصرف - د / محمد فتحي عثمان .

ومستقبلها قد احتاط لتلك العقبة وذلها من قبل ، فلم يصدر دستوره المقدس الحكيم إلا وقد اشتمل على النص الصريح الواضح فى حماية الأقليات :

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المتحنة الآية ٨].

فهذا نص لم يشتمل على الحماية فقط بل أوصى بالبر والإحسان إليهم ، وإن الإسلام قدس الوحدة الإنسانية العامة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات الآية ١٣].

ثم قدس الوحدة الدينية العامة كذلك : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة الآية ١٣٦].

ثم قدس بعد ذلك الوحدة الدينية الخاصة فى غير صلف ولا عدوان : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات الآية ١٠].

هذا الإسلام الذى بُنى على هذا المزاج المعتدل والإنصاف البالغ لا يمكن أن يكون أتباعه سببا فى تمزيق وحدة متصلة ، بل العكس إنه أكسب هذه الوحدة صفة القداسة الدينية فلا تستمد قوتها من نص مدنى فقط ، وقد حدد الإسلام تحديدا دقيقا من يحق لنا أن نناوئهم ونقاطعهم ولا نتصل بهم : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المتحنة الآية ٩].

وليس فى الدنيا منصف واحد يكره أمة من الأمم على أن ترضى بهذا الصنف نقضاً لنظام شئونها .

وابن باديس بدوره يؤكد أن محبة المسلمين للإسلام ومجانبة العقائد الأخرى

وما يقوم به أصحابها من أعمال أبطها الإسلام ينبغي ألا تنفك عن اجتناب الحقد على المخالفين أو إيذائهم أو إكراههم على شيء من الدين . قال أجزل الله ثوابه :

«قرر الإسلام محبة الإسلام في قلوب المسلمين وكره ما سواه، ولكنه بين لهم أنه كره يحملهم على مجانية عقائد غير الإسلام وأعماله التي أبطها الإسلام دون أن يحملوا حقدا على مخالفهم أو يمسّوهم بأذى من سب أو تحقير لهم أو لمعتقداتهم، أو يكرهوهم على شيء من الدين، ولأجل أن يقتلع الإسلام جذور الحقد الديني والتعصب على المخالفين من قلوب أتباعه، ويزرع فيها التسامح - عرفهم أن اختلاف الأمم وتباينهم في نحلهم هو بمشيئة الله، وما كانت مشيئته إلا حكمة وصوابا .

وعرفهم بوجه الحكمة في هذا الاختلاف، وهي أن تباين أعمالهم بتباين مشاربهم ومداركهم مما هو ضروري لنمو العمران وتقدم الإنسان وظهور حقائق الأفراد والأمم والابتلاء والاختبار فيما أوتيت من عقول وإرادات وقوى وأعمال، فقال تعالى :

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة الآية ٤٨].

ثم أقر المخالفين على ما يتحلون ويعتبرونه دينا وسماء دينا وحكم بأن يترك لهم فقال : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون الآية ٦].

وأقر معابدهم وذكرها بما يقتضى وجوب احترامها بما يذكر فيها من اسم الله، وقرنها بالمساجد تأكيدا لذلك الاحترام، فقال : ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدِمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج الآية ٤٠].

وأقر كتبهم لهم وسماهم أهل الكتاب وأقر ما يعلمونه من دينهم وسماهم عملا فقال : ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [الشورى الآية ١٥].

وأقر أحكامهم فيما بينهم ونهى عن التعرض لهم إلا إذا جاءوا بطوعهم واختيارهم متحاكمين إلى الإسلام فقال : ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة الآية ٤٢].

فأنت ترى كيف أبقى لهم الإسلام كل كياناتهم الدينى وجميع مقوماته، وأحاط دينهم بسياج من الاحترام بعدما عرف المسلمون أن ما هم عليه من تلك الأديان هو من مقتضى مشيئة الله وحكمته وفى صالح البشرية والعمران، وأن الجزاء على ذلك إنما هو لله وحده يوم يرجع إليه العباد: ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام الآية ١٠٨].

بيان هذه الحقائق من سنن الله وحكمته وتقرير هذه الأحكام من شريعته، ربي الإسلام المسلمين على التسامح وكون نظرهم لغيرهم من أهل الملل، فسلمت قلوبهم من الحقد الدينى المقفوت والتعصب المذموم.

وجرت معاملتهم لهم فى أيام قوة المسلمين وأيام ضعفهم على سنن التسامح والاحترام اللهم إلا وقائع نادرة جدا كانت أيام ضعف المسلمين وطغيان غيرهم عليهم، فانتقموا انتقام المظلوم المهان لا انتقام الحقود المتعصب^(١).

والحق أن ابن باديس كان مفكراً إسلامياً معاصراً بحق، إذا صاغ الأصول التى انبنت عليها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إنما هو واضع نصب عينيه الإسلام يلى تطلعات الفكر وحاجات المجتمع المعاصر.

وبمثل هذا الفهم النير والرؤية الجليلة كان ابن باديس يدعو ويعلم كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وهو فى الوقت نفسه يقدم أصول الحرية للفرد والشعب والوطن مستمدة من الإسلام نفسه واحترامه للإنسانية فى جميع أجناسها ومعتقداتها. وبهذا يصوغ العقول والمشاعر فى جذورها وأعماقها، وإن لم يمس السياسة مباشرة فى سطوحها وظواهرها.

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها فى الإصلاح،

فى جو إرهابى فظيع، وبعد فشل الدولة الفرنسية فى الاحتفال بالعيد المثلوى لاحتلال الجزائر بسبب انطلاقات وجهود ابن باديس وصحبه الأخيار، حيث تجمع الشعب حول العلماء.

فى هذا الجو اجتمع نفر صالح من إخوان عبد الحميد فى نادى الترقى فى مدينة الجزائر العاصمة فى يوم ٥ مارس سنة ١٩٢٠م وأسسوا جمعية علماء المسلمين فى

(١) الشهاب ج١ ص ١١ م ١٣ يناير ١٩٣٨م - ١٣٥٦هـ.

الجزائر العاصمة، وانتخبوا بالإجماع الشيخ ابن باديس رئيساً لها في أثناء غيابه، ووضع الشيخ البشير الإبراهيمي نظام الجمعية ومنهج عملها الإصلاحي، وأخذت الجمعية بقيادة رئيسها وقطبها عبد الحميد بن باديس تعمل بجد ودأب وتنظيم على تطبيق منهجها في الحياة اليومية في الجزائر، فأنشأت المدارس الأهلية في المدن وفي القرى البعيدة تقوم بتدريس اللسان العربي والعلوم العامة ومبادئ الدين، وأرسلت الوعاظ المثقفين يجوبون المدن والقرى والديساكر يعلمون الناس ما يهمهم لصالح الدنيا والآخرة.

وأخذت الجمعية تطبق أهدافها في إصلاح الطرق الصوفية التي غدا أكثرها بيد الأجانب. وكان رد الفعل من قبل المحتل عنيفاً؛ إذ أغلقت المدارس، وسجن المدرسون ونفى الوعاظ حتى أصدر المدعو «ميشيل» مدير الأمن العام في العاصمة - أوامره بمراقبة العلماء ورصد تحركاتهم ونصب نفسه رئيساً للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وقوبل هذا الوضع بالاستياء والسخط من قبل المواطنين الجزائريين، وزادت مكانة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في قلوب أبناء الوطن.

وأنشأ عبد الحميد بن باديس فروعاً لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في شتى أنحاء الجزائر، فخلق طائفة من الدعاة والمرشدين يحملون أمانة الكلمة، ويؤدون دوره الإصلاحية في القرى المتناثرة والعواصم النازحة، إذ يصمدون لتبديد كل فرية، وإزالة الحجب عن كل خديعة، وكانت طرق المقاومة أمامهم شاقة مرهقة، إذ لا يكتفون بمقاومة العدو المستعمر، فيزيفون أباطيله، ويعارضون اتجاهاته، بل تضطروهم المعركة إلى منازل فريق من مشايخ الطرق أغواهم الاحتلال الفرنسي، فاتخذهم أداة لتخدير العقول وتسميمها باسم الدين، فهم يقومون بالشعوذة والدجل، ولا يكادون يفرغون من رقصات الذكر ودقات الطبول، وتأويل الأحلام وكتابة الأحجية والتمائم ومعالجة المرضى بآيات من القرآن تساق في غير مساقها الهادف، كما يسعون لتشويه الإسلام بترديد الإسرائيليات والدعوة إلى مسالة الفرنسيين، مع بث التواكل والزهد، وعرض الإسلام في صورة انعزالية جامدة لا تدعو إلى بعث أو إصلاح.

كل ذلك يتطلب أناساً من شباب المدرسة الباديسية ليكشفوا عن وجه الحق ما ران عليه من ضباب محترفي الولاية الزائفة، وأنصار الحلقات والطبول، وكان الاصطدام عنيفاً بين قوم يؤيد الاحتلال مخازيهم الزائفة، ويمهد لهم السبيل لتضليل العامة وتسميم الأفكار، وبين جماعة من الفدائيين الأحرار صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فواصلوا الكفاح تحت راية قائد باسل، يرسم الخطة ويهدى السبيل.

على أن خطة جماعة العلماء فى العمل السياسى كانت من المران والسعة بحيث قبلت العمل فى كل معسكر عربى ، ووزعت أبناءها بين طوائف المجاهدين دون التعصب إلى فريق معين ، حتى تلاقت وتحققت النتائج السارة كما تراءت فى أحلام الأساتذة الدعاة . ولقد كان إعداد هذا الجيل المجاهد أنضح ثمار ابن باديس وأعظم أعماله ، حيث استمع إلى نصيحة الأستاذ الإمام محمد عبده فى العمل على تكوين شباب مستنير يقوده التعليم تلقائيا إلى إصلاح البلاد ، فيضطر الاستعمار فى كل مكان إلى التقهقر ؛ إذ ينكشف خداعه لذوى الثقافة من المستنيرين بعد أن ركب مطاياهم من الجهلة والرعاى وأوشاب الوصوليين من ذوى المآرب والأطماع .

اعتمدت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة عند وضع مبادئها الإصلاحية وأصولها العامة التى سارت على هديها :

١- الإسلام هو دين الله الذى وضعه لهداية عباده ، وأرسل به جميع رسله وكمله على يد نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - لا نبي من بعده .

٢- الإسلام هو دين البشرية الذى لا تسعد إلا به وذلك لأنه :

أولا : كما يدعو إلى الأخوة الإسلامية بين جميع المسلمين يذكر بالأخوة الإنسانية بين البشر أجمعين .

ثانيا : يسوى فى الكرامة البشرية والحقوق الإنسانية بين جميع الأجناس والألوان .

ثالثا : لأنه يفرض العدل فرضا عاما بين جميع الناس بلا أدنى تمييز .

رابعا : يدعو إلى الإحسان العام .

خامسا : يحرم الظلم بجميع وجوهه وبأقل قليله من أى أحد على أى أحد من الناس .

سادسا : يمجّد العقل ويدعو إلى بناء الحياة كلها على التفكير .

سابعا : ينشر دعوته بالحجة والإقناع لا بالختل والإكراه .

ثامنا : يترك لأهل كل دين دينهم يفهمونه ويطبقونه كما يشاءون .

تاسعا : شرك الفقراء مع الأغنياء من الأموال ، وشرع مثل القراض والمزارعة والمغارسة مما يظهر به التعاون العادل بين العمال وأرباب الأراضى والأموال .

- عاشرا : يدعو إلى رحمة الضعيف ، فيكفي العاجز ويعلم الجاهل ويرشد الضال ويعان المضطر ويغاث الملهوف وينصر المظلوم ويؤخذ على يد الظالم .
- حادى عشر : يحرم الاستعباد والجبروت بجميع وجوههما .
- ثانى عشر : يجعل الحكم شورى ليس فيه استبداد ولو لأعدك الناس .
- ٣- القرآن هو كتاب الإسلام .
- ٤- السنة «القولية والفعلية» الصحيحة تفسير وبيان للقرآن .
- ٥ - سلوك السلف الصالح «الصحابة والتابعين وأتباع التابعين» ، تطبيق صحيح لهدى الإسلام .
- ٦- فهوم أئمة السلف الصالح أصدق الفهوم لحقائق الاسلام ونصوص الكتاب والسنة .
- ٧- البدعة : كل ما أحدث على أنه عبادة وقربة ولم يثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فعله ، وكل بدعة ضلالة .
- ٨- المصلحة : كل ما اقتضته حاجة الناس فى أمر دنياهم ونظام معيشتهم وضبط شئونهم وتقدم عمرانهم مما تقره أصول الشريعة .
- ٩ - أفضل الخلق هو محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنه :
أولا : اختاره الله لتبليغ أكمل شريعة إلى الناس عامة .
ثانيا : كان على أكمل أخلاق البشرية .
ثالثا : بلغ الرسالة ومثل كمالها بذاته وسيرته .
- رابعا : عاش مجاهدا فى كل لحظة من حياته فى سبيل سعادة البشرية جمعاء حتى خرج من الدنيا ودرعه مرهونة .
- ١٠ - أفضل أمته بعده هم السلف الصالح لكمال اتباعهم له .
- ١١ - أفضل المؤمنين هم الذين آمنوا وكانوا يتقون وهم الأولياء والصالحون ، فحظ كل مؤمن من ولاية الله على قدر حظه من تقوى الله .
- ١٢ - التوحيد أساس الدين فكل شرك فى «الاعتقاد أو فى القول أو فى الفعل» فهو باطل مردود على صاحبه .

- ١٣- العمل الصالح المبني على التوحيد، به وحده النجاة والسعادة عند الله ، فلا النسب ولا الحسب ولا الحظ بالذى يغنى عن الظالم شيئا .
- ١٤- ندعو إلى ما دعا إليه الإسلام ، وما بيناه منه من الأحكام بالكتاب والسنة وهدى السلف الصالح من الأئمة مع الرحمة والإحسان دون عداوة أو عدوان .
- ١٥- الجاهلون والمغرورون أحق الناس بالرحمة .
- ١٦- المعاندون المستغلون أحق الناس بكل مشروع من الشدة والقسوة .
- ١٧- عند المصلحة العامة من مصالح الأمة ، يجب تناسي كل خلاف يفرق الكلمة ، ويصدع الوحدة ويوجد للشعر الشفرة ، ويتحتم التأزر والثكاتف حتى تنفرج الأزمة وتزول الشدة بإذن الله ثم بقوة الحق وأذراع الصبر وسلام العلم والعمل والحكمة .
- ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة يوسف الآية ١٠٨] (١) .

عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الإصلاح

إن الشيخ ابن باديس هو السهل الممتنع ، ذلك أن صفاته تتدرج من التواضع والرفق بالناس والتسامح معهم والتفاؤل لهم والاعتماد على الخالق ، إلى الصرامة في الحق والشجاعة التي لاتقف عند حد هذا ، إلى ذكاء مفرط وتوفيق من الله جعله قادراً على توجيه الأمة الجزائرية إلى النصر في أناة وحزم .

(١) تسامحه ورفقه بالخلق وتفاؤله:

تتجلى هذه الصفات مجتمعة في مواطن عدة ، فهو لا يسلك مسلك العلماء شديدي التزمتم الذين يغرسون اليأس في النفوس ، لأنهم يظنون أن إصلاح النفوس لا يكون إلا بالزجر واللوم والإغلاظ في القول ، بل نراه يأسر القلوب بتواضعه ومودته ، فقد

(١) عبد الحميد بن باديس - قسنطينة الجامع الأخضر - الجمعة ٤ ربيع الأول ١٣٥٦ هـ .

قيل : إنه كان يعامل تلاميذه كأبناء ، وإنه كان يودعهم فرداً فرداً عند سفرهم إلى قراهم أو بلادهم ، كما مجده يأخذ بيد المذنبين برفق ، يدعوهم إلى التوبة بإصلاح أنفسهم ويستحثهم على العودة إلى الله عندما يبين لهم أن جهاد النفس هو أعظم الجهاد ، وأن الله يقبل توبة العاصين لأنه كثير المغفرة . وقل أن نجد أحداً يشبهه في رفقته بإخوانه المسلمين ، فهو يقول لهم : إن كثرة الرجوع إلى الله يقابلها كثرة المغفرة منه ، فلا يفتأ العبد راجعاً راجعاً إلى المغفرة ، ولا تفقده كثرة ما يذنب عن تجديد الرجوع^(١) «وهو يفتح باب الأمل أمام المذنبين عندما يؤكد لهم وجوب التوبة مهما عظمت الذنوب ، فقد كان عباده يذنبون ويتوبون إليه ويغفر لهم ، ولا يزالون كذلك ولا يزال تبارك وتعالى غفوراً»^(٢) .

إن التوبة هي طريق إصلاح النفوس لأنها تحول دون الاستمرار في المعصية بدافع القنوط من رحمة الله .

والإمام ابن باديس لا يريد أن يقطع طريق التوبة على أحد ، فإنه ينهى عن محاولة إذلال الخصم ووصفه بالكفر أو بأنه من أهل النار ، بل من الأفضل أن تعرض عليه الجرايم على بطلان الكفر وسوء عاقبته ، ومن حسن السياسة ألا يستخدم أسلوب التقرير الذي ينفر الناس من الوعظ ، فليس ثمة نفع في أن يقال لمرتكب الكبيرة إنه فاسق ، بل الأولى أن يبين له قبح الكبيرة وضررها ، ثم هو يبيث التفاؤل في نفوس العاصين مع تحذير المؤمنين من العجب والغرور ، فرجما كانت عاقبة من هو من أهل الكفر إلى الخير والكمال ، وربما ينقلب شخص من أهل الإيمان على عقبه في هاوية الويال^(٣) .

(ب) رجاء في الله وفرار إليه ،

وليس التفاؤل عنده نوعاً من الآمال الساذجة أو تخيل المحال بل أساسه عمل وقوامه رجاء في الله «إذ من ذا الذي لم يجد نفحات الرحمن في أكثر الأوقات في أخرج الساعات» لكن الشيخ ابن باديس لا يتعجل رحمة الله التي ستأتي ، وقد زاد إيمانه باقتراب ساعة الخلاص من المحنة ، فقال في اجتماع عام :

(١) مجلة الدراسات الإسلامية - العدد الأول السنة الأولى - يوليو ١٩٦٨م - د/ محمود قاسم - بتصرف .

(٢) تفسير ابن باديس ص ١٠٠ .

(٣) التفسير ص ١٥٠ - ١٥١ (٢) جريدة السنة المحمدية النبوية العدد ١٣ .

«أما بعد : فمرحبا بأبناء الجزائر وأفلاذ أكبادها، مرحبا بورثة مجدها الخالد، وحماة مجدها الطارف، وبناء مجدها الآتى الذى يتخبط به أحشاء الأيام» ولم يكن ابن باديس إلا صادق الحس، فإن هذا التفاؤل الذى بعثه فى النفوس يستطيع أى إنسان أن يلمسه فى هذه الطفرة العجيبة التى حدثت ما بين سنة ١٩٣٣م - ١٩٤٨م أى عندما تنتقل - مثلا - من قراءة جريدة الصراط إلى جريدة البصائر، إذ نجد أن التهاب الشعور وعظيم الثقة بالله وبالنفس قد بلغا حدا يبشر بثورة عاجلة .

وكان الشيخ ابن باديس يعلم حق العلم أن التفاؤل لا يثمر إلا إذا كان يرتكز إلى دعامة دينية هى الاعتماد على الله لا على المخلوق، وقد أشار فى أثناء مقاومة الرجعية الطرقية له إلى أن النجاح لن يكون إلا فى جانب هؤلاء الذين اتجهوا إلى الله مخلصين له الدين لا إلى المستعمر .

(ج) خلق العفو:

ولعل من سمات ابن باديس خلقه الإسلامى الأصل وهو العفو فإن خصومه من الطرقيين، وربما كان من ورائهم محركو الطرقية - دبروا له أمراً فأفسد الله تدبيرهم عندما فشلت محاولة اغتياله، ولم ير أن يتقم لنفسه، بل عفا عن هذا الذى أرسل لاغتياله .

(د) صرامته فى الحق:

حتى الآن لم نر إلا الجانب السمع السهل فى شخصية ابن باديس، وأظن أنه أن لنا أن نعرض الجانب الصارم الممتنع، بل لنا أن نقول :

إن طابع الصرامة والامتناع هو الغالب حتى فى جانبه السهل؛ لأنه كان فى الحق صارما وممتنعا فى تسامحه وسهولته، بمعنى أنه قل أن يدانيه أحد فى التسامح والرفق بالناس والتضحية من أجلهم .

وأما الجانب الصارم الممتنع قلبا وقالبا فيتجلى فى شدته العنيفة فى الحق وشجاعته النادرة، وما كان لأحد من معاصريه أن يدانيه فى هذين الأمرين من قريب أو بعيد؛ لأنه كان فى الحق أكثرهم فرارا إلى الله وثقة فى تأييده .

ولاشك فى أن تلاميذه ورفاقه أعرف الناس بمثل هذا الخلق عند ابن باديس، ومن هذه المواقف المتعددة نذكر مثالين :

* أحدهما كان فى معرض الرد على أحد النواب الموالين للحكومة ، وكان قد زعم أن الحكومة الفرنسية هى صاحبة فضل على جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لأنها تساعدها بالمال ، فبدأ ابن باديس يصف هذا الرجل بأنه رضى لنفسه أن يكون أداة هدم ، وبوق شر وفساد فى مجلس رسمى ، ثم يعجب كيف زعم هذا النائب أن جمعية العلماء مسئولة عن الفتن والقتال فى البلاد ، ولذا يصفه الإمام بالكذب ، ويحتج لذلك بالهدوء وعدم وجود صدام بين الحكومة وبين قوى أخرى «بل الموجود فى الوطن حركة هادئة عامة نحو ما وعدت به فرنسا الجزائريين من حقوق تعطى لهم» وهذا لون جديد من الجهاد السهل الممتنع الذى باشره ابن باديس فى وقت ما كان يجرؤ أحد أن يقول :

إن للمواطنين الجزائريين حقوقا يطالب بها ، لكن الإمام يقول ما لا يجرؤ أحد على قوله وبأسلوب هادئ يشبه خريير الماء الهادئ المستمر الذى ينخر فى الصخر ، ويدفع الجزائريين إلى التمسك بحقوقهم ، ثم هو يشكك فى نيات فرنسا فيتحدث عن سكوت الجزائريين وانتظارهم لوعود كاذبة فيقول :

«اعتصموا بالانتظار الذى تعودوه من أمد طويل ، فهم ساكتون منتظرون ، والله أعلم بما سيكون» .

* وأما المثال الثانى فهو موقف ابن باديس الصارم من دعوة الصلح بين جمعية العلماء وبين الطريقة عندما تقدم أحد الوسطاء بشروط الصلح ، فقال ابن باديس : كيف يعقل أن يفيد صلح مع جماعة تطلب إليه أن يحلل حراما ، ويحرم حلالا ، ثم هو صلح مشروط بشروط تتلخص فى أن الطرق الصوفية تطلب على لسان الوسيط إلى جمعية العلماء أن تقر البدع والمنكرات ، وأن تسكت عنها ، وأن تثبت الضلال وأن تحرم استخدام النظر العقلى والاستدلال .

إن هذه الشروط هى فى ذاتها هدم للصلح لا شرط فيه ؛ لأن قبولها معناه أن تحل جمعية العلماء نفسها .

ثم يحسم ابن باديس الأمر مع دعاة الصلح بأن يطلب إليهم أن يعرضوا هذه الشروط على حكم لا يميل مع الهوى ، وهو الكتاب والسنة .

إذ إنهما المعيار الحق ، ثم يتساءل : وفيه هذه الشروط التى تتنافى مع الشرع ، وكان من الأولى أن يطلب أهل الوساطة إلى الطرق الصوفية أن يعودوا إلى الكتاب والسنة فيهجروا البدع ، غير أن الأمر أعمق من هذا ، فإن الشرط الأخير الذى تقدم به الوسطاء

هو بيت القصيد عندما يطلبون إلى ابن باديس وأصحابه ألا يشتغلوا بالسياسة، فهذا هو الدليل على أن الصلح خدعة، بل مكيدة إذ ليس هذا الشرط إلا نوعاً من تحريض المستعمرين وإغرائهم بدعاة الإصلاح الديني^(١).

وفيما بعد جاءت دعوة إلى الصلح من أحد علماء الأزهر ومن بعض طلبته يرجون جمعية العلماء المسلمين بالجزائر أن تضع حداً لهذه الفرقة، فبين لهم ابن باديس أن الصلح، وإن كان خيراً إلا أنه لا سبيل إليه مع أصحاب الطرق.

وقد عبر عن ذلك بقوله: «إننا نعلن لإخواننا أننا على رجاء اليأس من خصوم تضيع معهم حكمة لقمان، ولا يجدى معهم حلم معاوية، ولا يرضيهم عدل ابن الخطاب، ولا تسامح صلاح الدين، وليس لنزاعهم معنا غاية غير كم أفواهنا، وكسر أقلامنا، ثم إقلال راحتنا إن أعجزتهم المقادير عن إزهاق أرواحنا.

وليس لهم إلى هذه الغاية غير وسيلتين:

* إحداهما الوشاية بنا إلى الحكومة بأنا وطيون ضد الاستعمار وأنا نعمل للجامعة الإسلامية، وأنا . . . وأنا.

* وثانيتهما الاختلاق علينا مع الأمة بأنا ندعى الاجتهاد وأنا نستخف بامتنا في الدين وأنا ننكر الولاية والكرامة وأنا . . . وأنا. وقد فطنت الأمة إلى مكرهم وكيدهم، ولعل الحكومة لا تستمر على مجاراتهم».

أى صرامة في الحق مثل هذه الصرامة التي تهيم لعبد الحميد بن باديس في الوقت نفسه أن يتهم الحكومة الفرنسية بالجزائر بأنها تحرض الصوفية لوأد الحركات الإصلاحية الدينية، وذلك كله في أسلوب رقراق يضع كل إنسان في موضعه بصرامة ودقة ولكن دون عنف في التعبير يؤخذ عليه صاحبه.

١- أسس الإصلاح وأسلوب تنفيذه:

بدأ الإمام عبد الحميد بن باديس الإصلاح سهلاً هيناً، وانتهى به صارماً ممتنعاً، على نحو لم يفطن له المستعمر أول الأمر، ولم يستطع القضاء عليه بعد أن تم بالفعل.

(١) السنة المحمدية العدد الثامن ٤ صفر ١٣٥٢ هـ.

لقد أراد المستعمر أن يحاصر الجزائر بمحو شخصيتها العربية الإسلامية فحاصره ابن باديس بالجزائر العربية المسلمة ، التي يمكن القول بأنها نجت بمعجزة ، ونعنى بها معجزة الإخلاص العميق ، وتوفيق الله أن وهب لها زعيما هو نسيج وحده ، ظل يعمل في هدوء حتى أصبح الهدوء لا يكفي ، فثنى بالصرامة والعزم والقوى فحقق الله آماله ، وآمال أمته .

٢. ظهور فكرة الإصلاح؛

ظهور فكرة الإصلاح كان ضرورة تاريخية ، فقد اتفق ابن باديس مع المصلحين السابقين من أمثال جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده على أن الأمة الإسلامية بدأت تدرك أنها دخلت مرحلة دقيقة من تاريخها بسبب عودة الغزو الأوروبى الذى ذكرها بالحروب الصليبية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين ، وكان سقوط الجزائر هو النذير الأول ، ثم تتابعت النذر بسقوط تونس وليبيا ، ثم بسط الحماية على مراكش ؛ لذلك استيقظ المسلمون من ركودهم الشامل ، وارتفعت صيحات الإصلاح فى جوانب العالم الإسلامى تدعو الناس إلى معالجة أدوائهم بالقضاء على أسبابها واجتثاث أصلها .

وقد لاحظ ابن باديس أن سلاح اليقظة كان دائما عن طريق العودة إلى الإسلام الصحيح المستقى من الكتاب والسنة ، وهو الإسلام «الذى أنقذ الله به العالم أولا ، ولا نجاه للعالم مما هو فيه اليوم إلا إذا أنقذه الله به ثانيا»^(١) .

وهناك ما يدعو إلى التفاؤل لأن المسلمين يلبسون نداء الصالحين مما يقوى الرجاء ويبعث الأمل .

٣. نجاح خطة الإصلاح؛

وهكذا نجحت خطة الإصلاح التى رسمها عبد الحميد بن باديس ونفذها بصبر وأناة ، وهو تخطيط فى غاية البراعة ، إذ استطاع أن يعزل المتحالفين ، فبدأ بالطرق الصوفية التى أراد فى أول الأمر أن يستخلص العناصر السليمة فيها ، لأن الأخوة فى الله فوق أى اعتبار آخر . فلما حاربه بدأ يعزلها عن الشعب ، فلما لجأت إلى المستعمر

(١) التفسير ص ٤٣٤ .

أظهرها بمظهر الخيانة فقدت سلطانها على الشعب، ولم تعد ذات نفع للحكومة الفرنسية بالجزائر، بل غدت عبئا عليها.

فلما انتهى من الأذئاب ظهرت دولة الباطل على حقيقتها؛ إذ إنها كانت تريد أن تمحو الصبغة العربية الإسلامية في الجزائر، غير أنها تنبعت بعد فوات الوقت إلى أن مصلحا قطع الطريق عليها في رفق ودون تظاهر بالبطولة. فحاصرها ببعث اللغة، وتجميد العاطفة الدينية الصادقة مما أحيأ في الأمة روح المطالبة بحقوقها، وفي مقدمتها الحرية الدينية التي كانت فرنسا تتظاهر باحترامها، وهي الحرية التي لا يمكن الحفاظ عليها في الجزائر بصفة خاصة إلا بلسانها العربي.

لقد قام الإمام عبد الحميد بن باديس بهذا الحصار بأسلوبه السهل الرقيق الهادئ في الوقت الذي ظن فيه المبشرون أن الحكومة الفرنسية العلمانية بالجزائر قد هيأت لهم كل الوسائل في هذا القطر الإسلامي، فما عليهم إلا أن يدخلوه بجحافلهم.

غير أنها وجدت آخر الأمر أنها هي التي حوصرت، ونعلم جميعا نهاية هذا الحصار، فقد نجح القطر الجزائري بفضل من الله وبإخلاص ابن باديس وتضحيات الشعب الجزائري كله.

الدعوة للإصلاح لا تغفل وسائل العصر

استعان ابن باديس بأدوات العصر لإبلاغ دعوته، وفي مقدمتها الصحافة، فإلى جانب دروسه ومحاضراته اتخذ من جريدته (المنتقد) التي أصدرها عام ١٣٤٥ هـ... ١٩٢٦ م أداة لبيان المفاهيم الإسلامية الصحيحة وانتقاد الأوضاع القائمة التي تخالف أحكام الكتاب والسنة.

ومن هنا جاءت التسمية التي اختارها لصحيفته، وكان ابن باديس قد شن حملة عنيفة على الطريقة في العام السابق على إنشاء الصحيفة وقد شارك من قبل في تأسيس جريدة (النجاح) لكنه تركها ليستقل بجريدة يحررها دون تدخل أو مشاركة.

وبعد صدور ثمانية عشر عددا من (المنتقد) تنبعت السلطة الاستعمارية إلى خطر ما تحمله من أفكار لم تعهدها فيمن عرفت من شيوخ الدين فقررت تعطيلها.

وعمل ابن باديس على استصدار ترخيص بإصدار مجلته الشهرية المعروفة (الشهاب) راعى في أسلوب تحريرها شيئا من المرونة دون تراجع عن أهدافه ومقاصده.

إلى جانب الصحف التي أصدرها ابن باديس وحررها بالعربية استعان على إبلاغ دعوته بكل أداة صحفية أخرى يكون قائما عليها أحد المؤمنين بدعوته المناصرين لحركته المخلصين له ولجماعته ، وكان من بين هذه الصحف ما يصدر بالفرنسية ، فكانت صحيفة (الدفاع) التي تصدر بالفرنسية في قسنطينة ويحررها الأستاذ أمين العمودي - منبراً لابن باديس ودعوته الإصلاحية في الجزائر .

يقول الأستاذ مسعود علم الندوي في مقال كتبه بالإنجليزية عام ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م بعنوان (الحركات الإسلامية المعاصرة) عن داعية الإصلاح الإسلامي في الجزائر :

عبد الحميد بن باديس دارس متعمق للقرآن والسنة وباحث وكاتب بالعربية له موهبة الرأي المتزن ، وذو نزعة سلفية في الفقه والدين ، وهو من نفس المستوى والنوع اللذين يدرج فيهما محمد عبده ورشيد رضا وعالم الشام عبدالرزاق البيطار وجمال الدين القاسمي ، وقد شق طريقه على النهج القويم وأصدر مجلة (الشهاب) الشهرية في عام ١٣٤٣ هـ وصحفا أسبوعية أخرى (الصراط ، الشريعة ، السنة) .

وقد درس كاتب هذه السطور (أي مسعود علم الندوي) أعداد هذه الصحف التي صدرت منذ عام ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م وهو يقرر بلا تردد أنه بالنسبة لهذا اللون من الصحافة يمكن أن توضع صحف الجزائر الإسلامية الصادرة في ذلك الوقت في مصاف أرقى مجلاتنا ، وإلى جانب الكتابة عمل ابن باديس على افتتاح شبكة من المدارس الابتدائية وكان يقوم هو بنفسه بالتدريس في قسنطينة ، وقد حمل تلاميذه وإخوانه دعوته إلى كل زاوية وركن من البلاد ، وإن كان المتصوفة والعلماء الفاسدون لم يألوا جهدا في وضع العراقيل في طريقه وتعويق تقدمه . وتأسست (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) لتسير على هذا النهج ومن يوم مولدها والحكومة (الاستعمارية) لا تطيق وجودها وكذلك جهلة المتصوفة ، واستمرت دسائس الخصوم حتى وفاة ذلك المجاهد العظيم في عام (١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠ م) ولكن غياب جسده عن مسرح الأحداث في الجزائر لم يكن يعنى توقف الحركة التي بدأها ، فقد سارت في طريقها^(١) .

(١) عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الإسلامية في الجزائر المعاصرة - د محمد فتحي عثمان ط دار القلم الكويت ص ٤١ .

المقال منشور في مجلة (صوت الإسلام) كانت تصدر في كرادشي (جمعية الفلاح) عدد نوفمبر ١٩٦١ م .

القرآن الكريم أساس الإصلاح:

نشرت مجلة (الشهاب) دروس عبد الحميد بن باديس فى تفسير القرآن، التى اتخذ صاحبها لها عنوانا هو (مجالس التذكير فى تفسير كلام العليم الخبير) وقد استمرت هذه الدروس تلقى كمحاضرات أكثر من عشرين عاما. وهى شاهد على غزارة علم صاحبها من جهة وواسع معرفته بأحوال مجتمعه وحاجاته الفكرية والاجتماعية، فى الوقت نفسه فهو لم يكن يعتسف تأويل آيات الكتاب؛ ليحملها ما لا تحتل وينطقها بما يريد ويتجاهل دلالة الآية البينة الصريحة، كما أنه لم يكن يفرق فى تفاصيل الألفاظ والحروف والمعانى الجزئية؛ حتى تضعيح الحكم والمقاصد والأصول العامة التى توحىها هداية القرآن، بل كان التفسير يحقق أهدافه العلمية التربوية الاجتماعية متضافرة متساندة. يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمى فى تقديم ما نشر من (تفسير ابن باديس) إلى القراء، وكان قد خلفه على رئاسة (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين):

وكما أتى القرآن لأول نزوله بالعجائب والمعجزات فى إصلاح البشر فإنه حقيق بأن يأتى بتلك المعجزات فى كل زمان، إذا وجد ذلك الطراز العالى من العقول التى فهمته، وذلك النمط السامى من الهمم التى نشرته وعممته فإن القرآن لا يأتى بمعجزاته ولا يؤتى آثاره فى إصلاح النفوس إلا إذا تولته بالفهم عقول كعقول السلف، وتولته بالتطبيق العلمى نفوس سامية وهمم بعيدة كنفوسهم وهممهم. أما انتشاره بين المسلمين بهذه الصورة الجافة من الحفظ المجرد وبهذا النمط السخيف من الفهم السطحى وبهذا الأسلوب التقليدى من التفسير اللفظى؛ فإنه لا يفيدهم شيئا ولا يفيد لهم شيئا، بل يزيدهم بعدا عن هدايته ويزيد أعداءهم استخفافا بهم وإمعانا فى التغلب عليهم.

هكذا فعل القدماء والمحدثون بالقرآن، حكموا فيه نحلهم ومذاهبهم وصناعاتهم الغالبة عليهم، فأضاعوا هدية وبلاغه، وأبعدوا الأمة عنه وصرفوها عن حكمه وأسراره.

ثم كانت المعجزة بعد ذلك الإرهاص بظهور (محمد عبده) ولكنه مات فخلفه ترجمان أفكاره ومستودع أسراره (محمد رشيد رضا) فكتب فى التفسير ما كتب ودون آراء الإمام فيه ومات قبل أن يتمه. . . فانتهدت إمامة التفسير بعده فى العالم الإسلامى كله إلى أحنينا وصديقنا ومنشئ النهضة الإصلاحية العلمية بالجزائر بل والشمال الإفريقى عبد الحميد بن باديس^(١).

(١) من تقديم الشيخ محمد البشير الإبراهيمى لكتاب تفسير ابن باديس.

وبالطبع يتكلم الشيخ في تقديمه لما وصله من تفاسير منشورة بالعربية خلال حياته؛ إذ لم يكن في طوقه أن يحيط علما بما نشر في شتى ديار الإسلام بمختلف اللغات .
كذلك اختار ابن باديس من أحاديث رسول الإسلام - صلوات الله وسلامه عليه - ما والى شرحه بمجلة (الشهاب) كما قدم صوراً معبرة لشخصيات من السلف تحمل القدوة والعبرة^(١) .

وهكذا استخدم ابن باديس (المصادر السلفية) الأصلية من كتاب وسنة وتاريخ صحيح في تصحيح المفاهيم لدى المسلمين المعاصرين، وإعادة صياغة النهج السلفي في التفكير الإسلامي .

وقد سبق للشيخ محمد عبده أن ألح على وجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة وحدهما في أحكام الدين، وعدم تقليد الرجال والانسحاق مع العرف .

وبهذا النهج وحده نطهر أفكارنا وأعمالنا من البدع والأباطيل في مجال الاعتقاد وفي مجال العمل .

وقد صادم محمد عبده بدعوته هذه ما كانت عليه الطرق الصوفية دون أن يسميها .

وربما بقيت في نفسه آثار تقدير الخال أبيه الصوفي الذي حبه في علوم الدين وقربها إليه، يذكر الشيخ بقلمه: «ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين:

الأول: تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفها إلى ينابيعه الأولى واعتبارها من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لثرد من شططه وتقلل من خلطه وخبطه، وإنه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم، باعنا على البحث في أسرار الكون، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل .

والأمر الثاني: إصلاح أساليب اللغة العربية». ويبدو أن هموم الشيخ محمد عبده كانت تدور حول (الخلافات الفقهية) والمآخذ على المصنفات الفقهية المتأخرة وطريقة تعليم الفقه في الأزهر أكثر مما كانت تنصرف إلى الصوفية وطرقها، فمن الأولى عانى طالباً وعالماً .

(١) انظر لعبد الحميد بن باديس «من هدى النبوة»، «رجال السلف ونسأله» وقد نشر الكتابين تلميذ بار بالشيخ، الأستاذ محمد الصالح رمضان .

ومن ثم كانت (السلفية) عنده ومحاربة التقليد تعنى بصفة أساسية الإنكار على التقليد المذهبي ، وما اقترن به من جمود وتخلف عن الواقعين العلمى والاجتماعى والعمل على ربط الناس دائما بالكتاب والسنة ويتجلى هذا فى قوله : «وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، وإنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم» .

أما ابن باديس فقد قامت دعوته فى الجزائر حيث لا يوجد خلاف مذهبي ، بل غالب أهلها مالكيون وأقلهم أباضية ، ولا توجد مؤسسة للتعليم الدينى كالأزهر لها رسوخها وآثارها بإيجابياتها وسلبياتها أيضا .

ومن ثم كانت مشكلة ابن باديس الأولى فى دعوته الإصلاحية هى الطرق الصوفية ، وكانت سبيل محمد عبده لإصلاح العقول والقلوب وربطها مباشرة بالينابيع الصافية للإسلام هى السبيل نفسها التى اختارها ابن باديس بعده ، وهى تفسير القرآن : كتاب الله الذى ينقاد إليه المسلمون أجمعون دون خلاف .

التقى عبد الحميد بن باديس ومحمد عبده فى ميدان الدعوة للإصلاح الإسلامى فقد عنى كلاهما بتصحيح المفاهيم والعقائد ، واعتمد كلاهما على تفسير القرآن لتطهير العقول من ركام التقاليد البالية والبدع والضلالات ، واهتم كلاهما بالتربية والتعليم وإنشاء المدارس للنهوض بالأجيال القادمة من أبناء المسلمين ، وقد كان محمد عبده معروفا فى الجزائر وبخاصة بعد انتشار (مجلة المنار) هناك وبعد زيارته للجزائر فى آخر أيامه ، ولكن ذلك لا يعبر عن متابعة وتبعية ، وإنما يعبر عن استجابة فطنة من الرجلين للظروف القائمة المتشابهة فى بلديهما ولؤثرات العصر المحيطة بهما ، ولا بأس على كل حال بالتأثر الطبيعى المحمود من اللاحق بتجربة السابقين بإحسان .

وقد اقترن اسم محمد عبده (بالجمعية الخيرية الإسلامية) ومؤسساتها التعليمية والإصلاحية ، وإن تباين نشاطه فى ذلك نوعا ودرجة عن نشاط ابن باديس فى (جمعية العلماء الجزائريين) وكان ابن باديس أشد صرامة ودأبا فى محاربة (الطرقية) بينما عنى محمد عبده بصفة أساسية بمقاومة الجمود الفقهي والتعصب المذهبي .

ويبدو فى جلاء من شخصيتى ابن باديس ومحمد عبده ونشاطهما أن الأول كان أكثر (حركية) .

لقد كان محمد عبده رجل بحث وعلم وتأليف وتدريس بوجه خاص ، ولم يكن رجل عمل شعبي منظم مستمر مثل ابن باديس ، قد يلقي محمد عبده محاضرة أو درسا لهما بعض الأثر الشعبي ، لكن أثرهما الأكبر إنما يتناول المثقفين أو المستنيرين بوجه خاص ، ثم إنه لا يصبر على تعهد الغراس وإنضاجه وتوفير كل الظروف لإنباته نباتا حسنا ثم على جمع الثمار وإحسان عرضها والتغذية بها ومواصلة الزرع والاستثمار . . كان محمد عبده يكتفى بمؤسسة مركزية في عاصمة كبرى يجتذب بها بعلمه وخلقه وحسن حديثه وكياسته الكبراء والوجهاء والممولين ، لكن لا يصبر على (حركية) (العروة الوثقى) منظمة جمال الدين الشعبية العالمية .

أما ابن باديس ، فعلى الرغم من أن أسرته كانت من سراة قومه ، فإنه كان في شخصه من ذلك النوع من الرجال ، الصابر على العمل معظم اليوم والليلة الدائب على الحركة المؤمن بالعمل الشعبي في قاعدته العريضة الواسعة بين جماهير الناس وعامتهم ، القدير في ممارسة ذلك العمل ومطالبه ومتاعبه ومصاعبه .

إن محمد عبده يعطينا فكراً وعلماً ، قد تثمر جهوده مؤسسات تنتهي بحياته غالباً أو قد تستمر قليلاً بعد وفاته . إن مزاجه هو مزاج العالم السدى لا يستطيع أن يعيش طويلاً خارج مكتبته ومكتبه ، ومجلسه حوار مع الخاصة لكن ليس في طوقه أن يعايش الجماهير طويلاً أو يصبر على الحركة الشعبية المستمرة ولو في مجال الإصلاح الفكري البعيد عن السياسة ، وهو الذي تعقدت نفسه من العمل السياسي بعد ما كان للشورة العرابية من عواقب وخيمة مريرة لا تُنسى ، ولم يجذبه إلى النشاط الجماهيري الذي قد يتصل بالسياسة في مجالها العام ، الذي يتناول العمل على مكافحة الاحتلال الأجنبي على الأقل - إلا شخصية جمال الدين (النارية) الطاغية التي ينصهر معها حين يحاورها .

أما ابن باديس فكان بحق رجل (الجماهير) الصابر عليها ، العامل معها ووسطها مهما كانت المكانة الرفيعة له ولأسرته بينها ، وقد جاء نشاطه في جماعته صورة لطاقته الحركية الجماهيرية النشطة وكفايته التنظيمية البناءة ، إلى جانب عقليته الحكيمة المدبرة وبديته السريعة الثاقبة في الوقت نفسه .

بل إن دروس ابن باديس في تفسيره للقرآن أو في غير ذلك من الموضوعات ومحاضراته ومقالاته - فضلا عن جهوده العلمية - لتمثل حركيته وحرارته خير تمثيل ، فهو يطلق من الكلمات إلى قلوب المسلمين وعقولهم تياراً دافقاً متوهجاً من النور

والحياة، ويصوغ للإسلام صورة متكاملة للفكر والعمل، ويتواصى مع المؤمنين أن ينفث بعضهم في بعض روح العمل الاجتماعى الحركى^(١).

دعاة الإصلاح يلتقون

لقد كان محمد عبده يؤمن بالأثر الذى يحدثه التعليم فى التغيير والتحويل وبخاصة حين يرى فشل الجهود فى مجالات العمل العام، وهو صاحب فكرة المدرسة التى يختار لها نجباء الناشئين من مختلف البلدان الإسلامية وتقام فى مكان بعيد غير خاضع لسلطان دولة تعرقل سيرها، وفيها يربى محمد عبده وأستاذه جمال الدين طلاب المدرسة على منهج قويم يضعه، ويعدانهم لريادة الإصلاح فى بلدانهم ومجتمعاتهم:

«فلا تمضى عشر سنين حتى يكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ الذين يتبعوننا فى ترك أوطانهم والسير فى الأرض لنشر الإصلاح المطلوب فينتشر أحسن انتشار».

ولعل هذه الفكرة التى استلهمها محمد رشيد رضا تلميذ محمد عبده فى إنشائه: «مدرسة الدعوة والإرشاد» بمصر من بعد.

ومما يقول أحمد أمين عن محمد عبده فى هذا الصدد^(٢):

. . . كان يريد أن يسيطر على برامج التعليم فى المدارس حتى يصلح النفوس من هذا الطريق بالتوسع فى التاريخ الإسلامى، وبث مبادئ الدين الصحيح، ولهذا كان ينتهز كل فرصة لتقديم تقرير عن التعليم . . فلما يش وجّه همته إلى . . الجمعية الإسلامية يضع التلاميذ مناهج دراستهم ويؤلف لهم تفسير (جزء عم).

وهكذا كان دائما يريد أن يسيطر على التعليم ليوجهه الوجهة التى يريد.

وعنى محمد عبده إلى جانب الدعوة إلى «تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينباعها الأولى . . . بالدعوة إلى «إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير سواء كان فى المخاطبات الرسمية أو فى المراسلات بين الناس . . .».

(١) تفسير ابن باديس ص ٢٢٣، ونص تعبير ابن باديس «روح الاجتماع الشورى فى كل ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم حتى لا يستبد بهم مستبد».

(٢) انظر - أحمد أمين: زعماء الإصلاح ص ٨١ وما بعدها.

وقد اضطلع بتعليم الإنشاء في بيروت، ونشر مقامات البديع الهمذاني، ونهج البلاغة مع شرحه لهما.

وفي مصر كان يدرس البلاغة على النمط الذي يربى الذوق ويرقى بالأسلوب وكان يقرأ «دلائل الإعجاز» و «أسرار البلاغة» لعبد القاهر الجرجاني وحث على نشرهما: وأسس «جمعية إحياء الكتب العربية» سنة ١٣١٨ هـ برئاسته، وافتتحت أعمالها بنشر «المخصص» في اللغة، وعهد إلى الشيخ سعد المرصفي بتدريس كتب الأدب في الأزهر من أمثال الكامل للمبرد والحماسة لأبي تمام، ولم يكن ذلك معروفاً هناك من قبل.

ونجد عبد الحميد بن باديس قد اتجه كذلك إلى العناية بالتعليم الإسلامي وتعليم اللغة العربية وإنشاء المدارس في طول الجزائر وعرضها، في مدنهم وقراهم، وجبالها وصحاريها، وسهولها ووديانها، وكان ابن باديس «معاصراً» في استعمال أداة «التربية والتعليم» لتحقيق مقاصده، وقد أدرك قيمة «المدرسة» في خدمة الأهداف العقيدية الفكرية على المدى الطويل، وكان «معاصراً» في إدراك ما يحتاجه الشعب الجزائري بالذات في ذلك الوقت الذي يهدده في خطر «الابتلاع» و «الاحتواء» من قبل السلطة الاستعمارية، فقد واجه ذلك الشعب مخططات مرسومة بعناية لتذويبه تماماً في فرنسا: أرضاً وشعباً وعقيدة وثقافة، منها مخططات سياسية تجعل غاية أحلام الشعب الجزائري مقاعد معدودة على الأصابع في مجلس النواب الفرنسي في باريس، ومنها مخططات تشريعية تغري بالتخلي عن شريعة الإسلام في نظام الأسرة «الأحوال الشخصية» مقابل الوعد بإعطاء حقوق سياسية انتخابية للمواطن الجزائري بزعم وجوب التسوية في الواجبات إن أريدت التسوية في الحقوق، واقترن ذلك بإصدار ظهير سنة ١٩٣٠م - ١٣٤٩ هـ في المغرب المحمية الفرنسية لتحقيق انحسار شريعة الإسلام على قطاع ضخم من المسلمين المغاربة وإخضاعهم لأعرافهم العرقية (البربرية).

ثم كان من تلك المخططات الرامية إلى تذويب الشخصية الجزائرية: مخططات تعليمية ثقافية تعمل على أن تكون فرصة التعليم الوحيدة المتاحة للجزائريين هي في الالتحاق بالمدارس الحكومية التي تعلم كل شيء بالفرنسية، وعلى أن يُضيق بشدة على المدارس العربية الخاصة والمدارس القرآنية حتى تنقرض.

وهكذا تصير الفرنسية مع الزمن لغة التعليم والثقافة بعد أن صارت لغة الإدارة، بل تصير لغة الآباء والأمهات ولسان الوليد منذ يتعلم النطق، ولغة الشعب الجزائري كله. وقد صدر قرار في سنة ١٩٣٨ م - ١٣٥٧ هـ حظر تعليم اللغة العربية في المدارس

الحكومية واعتبرها لغة أجنبية ، والمدارس التي رأت السلطة الاستعمارية أن تجعلها مدارس تعلّم فيها العربية إلى جانب الفرنسية كانت محدودة العدد من جهة ، وتراجعت فيها مكانة اللغة العربية من جهة أخرى ، وكانت غايتها تخريج عدد من (الموظفين) تحتاج إليهم الترجمة في الإدارة- إلى أن (تفرنس) الجزائر تماما أو تحتاج إليهم الوظائف التي لها علاقة بالأحوال الشخصية والمساجد .

وهكذا جدّ الاستعمار الفرنسي في إحكام الحصار على اللغة العربية وبسط السبل لفرض اللغة الفرنسية حتى تغدو لغة الحياة اليومية للشعب الجزائري .

كما عمل على تفتيت المقومات الذاتية للفرد والأسرة والمجتمع ، ومن ثم يستحكم (الإطار السياسي) الذي تفرضه السلطة الاستعمارية على الجزائر بعد أن يصير المحتويان الاجتماعي والفكري للشعب هشين قابلين لإعادة الصياغة والتشكيل .

وهكذا تميزت حركة عبد الحميد بن باديس للإصلاح الإسلامي بتلك الجهود التعليمية التي استهلّت باضطلاعها هو بالتعليم في الجامع الأخضر بقسنطينة وانتهت بتلك الشبكة المتشعبة من المدارس في مختلف أنحاء القطر الجزائري المترامية .

وقد ارتبطت تلك الجهود التعليمية بالدعوة الشعبية العامة للإصلاح الإسلامي التي اضطلمت بها (جمعية العلماء) ارتباطا وثيقا العري وتشربت مبادئها وأخلصت في العمل لها في مجال التربية والتعليم وصارا صنوين لا يفترقان عقيدا وفكريا وإن اختص كل مجال بجهازه من ناحية التنظيم^(١) .

وهكذا وعى ابن باديس آراء دعاة الإصلاح الذين سبقوه ، ولاسيما جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، وأيقن أن طبيعة الواقع الجزائري ، وتسلب الاستعمار الفرنسي القاهر سوف يجعلانه في نهجه أقرب إلى مآثره محمد عبده من الفكر والإرشاد والتربية والتعليم . . . لكن ابن باديس كان «حركيا شعبيا» في دعواته الإصلاحية يؤثر العمل بين الجماهير الأمية الساذجة ، ويحدثهم بما يفهمون في المساجد والجامع ، وبينما يخاطب القراء المتعلمين بقلمه في صحافته ، وينشئ المدارس متطلعا إلى جيل قادم ومؤمن مستنير في المستقبل ، نراه لا يغفل الحاضر القائم ، ويحرص على عدم

(١) لتفصيل تلك الجهود التعليمية بوجه خاص انظر كتاب: تركي رابح: عبد الحميد بن باديس وجهوده في التربية والتعليم .

الانحراف فى تيارات السياسة العاتية فى صراع غير متكافى أو فى وقت غير موات، لكنه لا يتوقع ولا ينكل .

إذا كان لابد من مواجهة الأعاصير الهوج، وكان ذلك ضروريا أو ممكنا، وكان يرى فى جهوده البناءة فى تدعيم الشخصية الجزائرية الإسلامية العربية خير ظهير للمطالبة بحقوقه السياسية ويرى فى العمل لنيل هذه الحقوق السياسية المهضومة وتأييد الساسة العاملين لذلك خير تأكيد للمقومات الإسلامية العربية لهذا الشعب .

ويهد،

فلقد كان ابن باديس بحق داعية موفقا للإصلاح الإسلامى الجزائرى وقائدا موهوبا للحركة ومنظماتها، ونعمة من الله سيقت إلى شعب الجزائر المسلم العربى فى محنه وشدائده، وقبسا من نور الإسلام الميين أشرق خلال حوالك الظلمات، واستجابة واعية ملهمة للظروف القائمة فى البلاد ومعالجة حكيمة لها بهدى الإسلام فى إخلاص ورشد .

وقد يلتقى ابن باديس مع غيره من دعاة الإصلاح الإسلامى بالمشرق العربى أو فى أية بقعة من ديار الإسلام، ولكن يسقى له مع ذلك طابعه المتفرد، وتبقى لحرته خصائصها .

إن إلقاء الضوء على سير الدعاة والمصلحين وتاريخ الحركة الإسلامية فى مختلف حلقاتها وأزمانها وأماكنها بإيجابياتها وسلبياتها تنويرا وتبصيرا للعاملين للإسلام فى الحاضر والمستقبل، ولا سيما ما كان قريبا إلى عصرنا من حلقات تلك الحركة المتجددة يقول الحق تبارك فى علاه: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوثُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود الآية ١١٦]

ويقول أيضا: ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران الآية ١٠٤] .

ومن واجب المؤرخين والمفكرين والدعاة أن يتضافروا على هذا العبء الجليل: كل من زاويته، وعلى قدر ما يستطيع الإسهام به .

رحم الله ابن باديس ، وأجزل مشوبته بقدر ماجرى على يديه من خير لأمته ، ومن تخرج من تلاميذه ، ومن واصل الدعوة إلى الإسلام بعده متفعا بما قدمه من قدوة لا ينقص ذلك من أجور هؤلاء كلهم شيئا ^(١) . يقول الحق جل في علاه :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٢٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران الآيات ١٣٧ : ١٣٩] .

(١) في هذا الصدد انظر :

- ١- الرسالة الإسلامية العدد ٢٧ صفر ١٣٩٢ هـ .
- ٢- عبد الحميد بن باديس ودعوته الإصلاحية - محمود العيطة ص ٤٩ وما بعدها .
- ٣- مجلة دعوة الحق - المغرب - ص ٩ عام ١٩٦٩ م / د / الطاهر أحمد .
- ٤- مجلة الصراط - ١٩٣٣ م ، وملحق جريدة الشعب الجزائرية ١٩٧٣ م ص ١١ .
- ٥- ملحق جريدة الشعب الجزائرية المرقم ٢٢٩٩ م عام ١٩٧١ م ص ٦٣ محمد سعيدى